في الأدب المقارن

النقـــد

في الأدبين العربي والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

ليس النقد إلا ميلاً طبعياً فى الانسان إلى الحكم على ما يحس وما يرى ، واختيار الأحسن من ذلك . ونشاط النقد دليل على نشاط الفكر ، وهو مصاحب لارتقاء الأدب وانتشار الثقافة فى كل أمة ؛ بل هو ضرورى لتقدم الأدب : يقفه على مواضع إحسانه ويظهره على مواقع تقصيره ، ويجلو أمامه غاياته وطرائقه ، ويستحثه على دوام الترقى والتزيد . فالأدب صدى الحياة ، والنقد صدى لذلك الصدى ، يُظهر للأدباء والمتأدبين مدى نجاح الأدب فى تأدية رسالة الحياة وموقع أعمالهم فى النفوس

فالناقد النزيه خير صديق للأديب : يضع اصبعه على عيوبه فيتلافاها ، ويستحسن إجاداته فيزيده ثقة بنفسه واقبالاً على ممارسة أدبه . ولعل أروع أمثلة ذلك ما كان من ملازمة كولردج لوردزورث : فقد وجد الأخير فى صاحبه — حين اعراض الجمهور عنه وغمْط الجميع حقه — خير عارف بقدره معجب بأدبه ، وكان لاعجاب كولردج وتشجيعه أبعد المدى فى أدب وردزوث ، وكان الشعر الذى كتبه فى عهد صداقتهما خير ما كتبه على الاطلاق

بيد أن الأحقاد الشخصية سريعة إلى نفوس الأدباء والنقاد ، والأهواء السياسية والمذهبية كثيرة الوغول على الأدب والنقد . وقد شهد الأدبان العربى والانجليزى ما لا يحصى من أمثلة النقد المغرض ، وقاسى الأدباء حملات الخصوم الشخصيين أو السياسيين باسم الفن والنقد . ومن أمثلة ذلك فى العربية حملة الصاحب على المتنبى وإشلاؤه عليه أذنابه . وفى الانجليزية عانى أعلام الأدب أمثال وردزورث وتنيسون وكيتس حملات الرجعيين والحاسدين ، وبلغ الكمد من الأخير حين هاجه بعض ناقديه فاقتنع أن مات محتضراً فى عنفوانه

وقد كتب الكتاب فى العربية والانجليزية وغيرها من اللغات فى النقد كثيراً ، وحاول كل من عالجه أن يستخلص من شتى الشواهد المنتزعة من آثار فحول الأدب قواعد عامة للأدب توضح غثه من سمينه وتعين القارىء والناقد على استحسان الحسن واستهجان الهجين مما يكتب الكاتبون ، ولكن النقاد لم يتفقوا بعد جهودهم تلك على شىء ذى بال ، بل ناقض بعضهم بعضاً ، واستجاد هذا ما استرذل ذاك ، وظل المرجع الأول فى نقد الأثر الأدبى إلى ذوق الناقد وتكوينه الفكرى ، وظل كل أثر أدبى من شعر أو نثر يحمل فى طياته المبادىء التى يجب أن ينقد على حسبها ، بل رأى وردزورث — وأصاب — أن الناقد الذى يُقبل على نقد أثر أدبى ، وقد كون لنفسه مبادىء ثابتة غير أهل للحكم على ذلك الأثر أو غيره

وللنقد صور شتى : فالأديب هو أول ناقد لأدبه ، وإنشاء الأثر الأدبى عملية مكونة من الخلق والنقد معاً ؛ ومن الأدباء من يعرض ما ينشىء على رفاقه ، ويستمع إلى ملاحظاتهم عليه ؛ وكان ذلك معروفاً بين العرب قبل أن تذيع الكتابة ، كما كانوا يعرضون أشعارهم على النقاد فى الأسواق الأدبية ، ولتمكن الملكة البيانية من العرب كان كثير من أمرائهم نقادة حفصاء للأدب . ويروى لعبد الملك والحجاج وسيف الدولة مع مداحهم : كثيّر وليلى الأخيلية والمتنبى نوادر فى ذلك ، فكثيراً ما كان الأمير أبصر بالأدب ونقده من مادحه ؛ فلما ذاعت الكتابة وانتشرت الثقافة ظهرت كتب النقد

وكتب النقد أنواع : فمنها ما يدرس مبادىء الأدب وغاياته ووسائله ويدخل فى هذا الباب كتب البيان والبلاغة والعروض والقافية ، وهى كل ما يمكن أن يتفق عليه النقاد من مسائل النقد . ويشترك الأدبان العربى والانجليزى فى وفرة هذا الضرب من كتب النقد الأدبى فيهما ؛ ومن كتب النقد ما يدرس أديباً واحداً أو جملة أدباء على منهج خاص من الدراسة ، كالكتب الكثيرة المؤلفة فى دراسة شكسبير وملتون ووردزورث وتنيسون وهاردى ؛ ومنها ما يدرس نوعاً خاصاً من الأدب كالقصة أو الشعر الغنائى ، ومن ذلك كتاب أبر كرومبى عن الملحمة ؛ ومنها ما يدرس عصراً يوضح عوامل الأدب ومظاهره فيه وآثار فحوله ، كالعصر الاليزابيثى والعصر الفيكتورى ؛ ومنها ما يدرس من عصور

أدب اللغة جملة : وتلك هي كتب تاريخ الأدب ، وليست في صميمها إلا نقداً ، وهي حديثة العهد

وكل هذه الأنواع نادرة في الأدب العربي وبعضها لا يوجد به ، وإنما الضرب السائد فيه هو ذاك الذي توخاه مؤلفو البيان والتبيين والكامل وبتيمة الدهر : من تناول الأدباء بغير نظام وسرد بعض آثارهم والتعليق المقتضب عليها ؛ وتلك هي كتب الأدب التي لم يكن الغرض منها درس أولئك الأدباء والاماطة عن جوانب نفسياتهم وأسرار نبوغهم ، بل كان الغرض اقتطاف أطايب آثار المتقدمين وتقديمها للمتأدبين السالكين سبيل الأدب الطالبين أسرار بلاغة العرب ، فلم تكن الغاية درس الأديب المتقدم ، بل إخراج الأديب المقبل

وقد استفاد النقد في الانكليزية كثيرا بتقدم العلوم الحديثة حتى فاق النقد العربي في نواح شتى : فتقدُّم علم التاريخ علّم النقاد أن يهتموا بحالة العصر الذي يدرسون من حيث السياسة والاقتصاد والمذاهب السائدة ؛ وتقدُّم علوم الاجتماع علمهم أن يهتموا بالبيئة التي نشأ فيها الأديب الذي يدرسون والصفات التي ورثها عن أسرته ، وبمزاجه النفسي وتكوينه الجسمي ، وأثر كل ذلك في أدبه ، فجاء النقد الانجليزي الحديث واضح المناهج بين الأسباب والنتائج ، وأبرز للعصور والأعلام صوراً جلية وشخصيات متميزة

أما نقاد العرب فكانوا أكثر اهتماما بدرس فنون الأدب وأساليب الصناعة منهم بدرس الأشخاص والعصور ؛ وقد أسهبوا في درس الفنون التي فشت في أدبهم واستأثرت بمعظم نثرهم وشعرهم : كرسائل الأمراء والنسيب الاستهلالي والمدح والهجاء والرثاء ، وهي المناحي التي لم تظفر من أدباء الانجليزية ونقادها بالتفات ، فقسَّم قدامة بن جعفر مثلاً الممدوحين الى ضروب : فملوك ووزراء وكتاب وقواد وسوقة ، وحصر صفات المدح في أربع : الشجاعة والعدل والعقل والعفة ، يجمعها قول زهير :

أخي ثقة لا تُهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله
فمن مثل حصن في الحروب ومثله لانكار ضيم أو لخصم يجادله

والناظر في كتب النقد في الأدبين العربي والانجليزي ، يرى — عدا ما تقدم — فروقا واضحة بين نقدي الأمتين كالفروق التي يرى بين أدبيهما ، بل يرى مواضع الاختلاف واحدة في الحالتين ؛ ولا غرو فالنقد كما تقدم صدى الأدب ، بل إن النقد والأدب يتجاوبان فيما بينهما صدى مستمرا طوال العصور ؛ والخصائص التي تغلب على أحدهما لابد أن تغلب على الآخر ، ومن ثم نجد بين النقد في العربية والنقد في الانجليزية ما نجد بين أدبي اللغتين من فروق في نواحي المحافظة والتجديد ، والتأثر بالأثر الأجنبي ، والمعنى واللفظ ، والفنون وهلم جرا

فنزعة المحافظة هي الغالبة على نقاد العربية ، وقل منهم من دعا إلى تجديد صحيح ، وذلك ابن الأثير مثلاً يزعم أنه مجدد بدء الأوائل ثم يأتي بأمثله من تجديده فاذا هي محافظة مغرقة وتقليد مفرط ؛ وأغلب نقاد العربية يقدسون المتقدمين دون تأمل ، ولا يرون عن مناهجهم حولاً ويضعونهم فوق متناول النقد . وذلك أبو علي الحاتمي يحسبه أتى بجديد حين مثل القصيدة بالانسان في تناسب خلقه ، فلا ينشب أن يقول : « وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها ، وانتظام نسيبها بمديحها ، كالرسالة البليغة » ، فهو لا يتصور القصيدة إلا نسيباً ومديحاً كما فعل الأوائل

وتتجلى نزعة المحافظة في النقد العربي في أمرين : غرضه ، وممارسيه ، وهما أمران متصلان أحدهما بالآخر ، فقد كان غرض كتب الأدب والنقد في العربية كما تقدم وقف الناشيء المتأدب على بلاغة المتقدمين ، وتفهيمه أسرار إعجاز القرآن ، لينحو منحى أولئك المتقدمين ويضرب على وتيرتهم ، فكان غرض النقد الأول تعليم المتأخرين كيف يقلدون الأولين

ولم يمارس النقد فحول الكتاب والشعراء ، ولم يؤثر عن فحول العربية مما يدرج تحت عنوان النقد إلا شذرات مقتضبة بعيدة عن التنظيم ، كوصية عبد الحميد لمنشر الكتاب ونصيحة أبي تمام للبحتري ؛ وربما ثار بعض الشعراء بما درج عليه زملاؤهم من تقاليد ، كثورة أبي نواس بالوقوف على الديار في مثل قوله :

لاجفَّ دمع الذي يبكي على حجر ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد

وتمرُّد المتنبي على النسيب الاستهلالي في قوله :

إذا كان شعرٌ فالنسيب المقدَّمُ أكلُّ أديبٍ قال شعراً متيم ؟

ولكنها كانت خطرات عابرة لم تُكوِّن مذهباً ولم تغير سنة ، بل لم يتبعها قائلوها أنفسهم وجاروا التقاليد الجارفة فيما

نظموه ، وإنما مارس النقد فى العربية المفلون فى النثر والشعر كالجرجانى وأبى هلال العسكرى ، أو من لم يؤثر عنهم شىء ، وهكذا كان الأدباء فريقاً والنقاد فريقاً آخر

أما فى الانجليزية فاختلط الفريقان ، وكان أفذاذ الأدب عادة هم أفذاذ النقد أيضاً ، وكان زعيم كل نهضة أدبية هو أيضاً زعيم النقد فيها : فكل من بن جونسون ودريدن وپوب وصمويل جونسون ووردزورث وكولردج وديكونسى وماكولى وماثيو أرنولد ورسكن ، كان كاتباً أو شاعراً كما كان ناقداً ، وذلك لعمر الحق دليل حيوية الأدب وروح التجديد فيه : فلن يكون الأديب أديباً حتى يكون له رأى فى الأدب والحياة ينضح عنه فى كتاباته النقدية ، كما يصدر عنه فى آثاره الأدبية ، وكلٌّ من دريدن وپوب ووردزورث قد استجد مدرسة فى الأدب لا بأشعاره فقط ، بل بنظرياته فى النقد . فبينما كان غرض النقد فى العربية المحافظة على مناهج المتقدمين ، كان فى الانجليزية ابتداء حركات جديدة

ولا ريب أن الأدباء الذين يمارسون النظم والنثر هم أدرى الناس بنقدها ، لأنه لا يعرف الشوق إلا من يكابده ؛ والأديب الذى يعلن للناس نظرياته النقدية مشفوعة بآثاره الأدبية أمثلةً مؤيِّدةً لتلك النظريات ، كما فعل وردزورث فى أغانيه الشعبية ومقدمته النثرية لها ، أحرى أن يُتَّبَعَ من الناقد الذى لا يمارس الأدب ، وإنما يملى على الأدباء آراءه وهو بنجوة عن محيطهم ، فمن أعجب ظواهر الأدب العربى تنحى فحوله عن مضمار النقد ، وتركهم مجاله لعباد القديم ومقدسى السلف

ولتقديس النقاد للقديم وقفوا موقفاً متناقضاً : فكانوا ينكرون على الأديب أن يحيد عن مناهج القدماء ، ثم ينكرون عليه أن يتداول معانيهم التى سبقوه اليها ، وصرفوا جانباً عظيماً من اهتمامهم إلى تتبع سرقات الشعراء ، فكتاب الوساطة للجرجانى أغلبه جهد ضائع فى تقصى المعانى إلى مواطنها الأولى من أشعار الأجيال السالفة ، وتمزيق القصائد بيتاً بيتاً ؛ والحكم على الشعراء بالاختلاس لأوهى الشبهات اللفظية

وكان نقاد العربية أكثر التفاتاً إلى الألفاظ منهم إلى المعانى ، وعداً كثرهم إحكام اللفظ ميزة الاديب الفحل ، وعدوا المعانى مشاعا بين الجميع ، قال أبو هلال العسكرى : « وليس الشأن فى إيراد المعانى ، لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى والقروى والبدوى ، وإنما هو فى جودة اللفظ وصفائه » ، وقال ابن الأثير « ولقد رأيت كثيراً من الجهال الذين هم من السوقة أرباب الحرف والصنائع ، وما منهم إلا من يقع له المعنى الشريف ، ويظهر من خاطره المعنى الدقيق ، ولكنه لايحسن أن يزوِّج بين لفظتين ؛ فالعبارة عن المعانى هى التى تخلب بها العقول ، وعلى هذا فالناس كلهم مشتركون فى استخراج المعانى »

ولهذا صرف أكثر النقاد همهم إلى خصائص الألفاظ وضروب الأساليب ، وأسهبوا القول فيما سموه علم البديع ، واستقصوا أقسام الجناس والطباق والسجع ، وطُرُق تضمين الآيات وحَلّ الأشعار ؛ ووجود علم البديع فى العربية دون الانجليزية برهان ناطق على شديد اهتمام نقاد العرب باللفظ ؛ وكان للنقاد والأدباء معاً إيمان وطيد بمقدرة اللغة على أداء أى معنى ، وثقة لا تتزعزع فى تفوق اللغة العربية فى الفصاحة على غيرها من اللغات ، وكانوا يرون ذلك ميزة العرب على غيرهم من الأمم التى بذّتهم فى شتى العلوم

أما موقف جمهور الأدباء الانجليز من اللغة فكان غير هذا : فهم وإن لم يغفلوا أهمية الصياغة اللفظية وضرورة تمكن الأديب من اللغة ووقوفه على أسرارها ، ظلوا يعدون اللغة وسيلة لا غاية ، وسيلة للتعبير عن خوالج النفس ، بل عدّها كثير منهم وسيلة ناقصة عاجزة عن التأدية إلى تلك الغاية ، يجب على الأديب أن يستفرغ جهده ليجعلها تؤدى غرضه ؛ فلم يهتم أدباء الانجليزية ونقادها برنين الألفاظ الأجوف وزخرفها المموه ، بل استعانوا بمعانيها المصطلح عليها ، وجرس حروفها ودقة اختيارها والملاءمة بينها ، واشتقاقها وخلقها حيث لا توجد لتأدية الحالة النفسية المتخيلة على ما يجب ، وتصوير الجو العاطفى أو المنظر المرئى : من رهبة أو جذل أو سكون أو سرعة ، ويفاضل النقاد الانجليز بين الأدباء حسب مقدرتهم على استخدام اللغة هذا الاستخدام وتطويعها لأغراضهم على هذا النحو ، لا حسب حفاوظهم من المحسنات البديعة ، ويقولون إن الفرق بين لغة العلم ولغة الأدب أن الأولى تعتمد على المعنى المجرد للفظ ، والثانية على ما توحيه الألفاظ من أجواء معنوية

ولما كان إيمان العرب بتفوقهم البيانى كما تقدم ، لم يهتموا

بالآداب الأجنبية أو النقد الأجنبي كثيراً ، فهم واضعو علوم البلاغة فى لغتهم ، وهم نهجوا بكتب الأدب والنقد نهجهم الخاص بهم ، وجدهم فى هذا السبيل جسيم جليل ؛ أما الانجليز فجعلوا النقد الأدبي الأجنبي دائماً نصب أعينهم ، قديماً كان أو حديثاً ، فما كتبه أرسطو ومما نظمه هوراس فى النقد نشأ النقد الأدبى فى الانجليزية ، وغُذِّى بعد ذلك بكتابات دانتى وبوالو ولسنج وجيته وسنت بيف وتين ؛ فالناقد الانجليزى يستعرض آراء هؤلاء أثناء استعراض آراء مواطنيه بلا تفريق

ولا ريب أن اشتمال النقد الانجليزى على آراء أمثال أولئك ربح للأدب لا يقدر : فاطلاع الأدباء والنقاد على خير ما تنتجه القرائح فى العالم أجمع يوسع آفاق تفكيرهم ويفسح حدود أدبهم ، وربما بالأدب أن تثقله القيود وتفسده التقاليد ، ومن ثم قال ماثيو أرنولد بضرورة إتقان الناقد فى أدب ما أدباً أجنبياً واحداً على الأقل ، تزداد فائدته له كلما ازداد التباين بينه وبين أدب الناقد الأصلى

فأكثر النقاد الانجليز كانوا كما تقدم من أعلام النظم والنثر ، وكانوا مطلعين على الآداب الأجنبية ، وما كُتب فيها فى النقد ، ثم هم كانوا — ولا سيما متأخروهم — مهتمين بالفنون الأخرى بجانب الأدب ، واقفين على ما كُتب فى نقدها ، بل كان منهم من جمع بين نقدها والنقد الأدبى : فدريدن واضع أساس النثر الانجليزى الحديث كتب رسالته فى « الموازنة بين الشعر والتصوير » وكذلك جمع لام وتكرى وركسن بين نقد الادب ونقد التصوير أو النحت ؛ ولا ريب أن تفقه الناقد فى تلك الفنون أكبر معوان له على حسن النظر فى الأدب وصدق النقد له ، لتشابه الفنون فى وسائلها وغاياتها

فالناقد الانجليزى كان أكثر أهلية للنقد وقدرة على النجاح فيه : لأنه كان يمارس الأدب بنفسه نظماً ونثراً فهو أدرى بدخائله ولأنه مطلع على الادب الأجنبي والنقد الاجنبي ، فهو أدرى بمحاسن أدبه ومثالبه ، ولأنه متبصر فى الفنون فهو أعلم بمناحى فنه الخاص — الأدب — ومن ثم حفل الأدب الإنجليزى بالدراسات القوية لعصور الادب وحوله وفنونه ، وجاء تاريخه أوضح منهاجاً وأبين معالم من تاريخ الأدب العربى

فتحى أبو السعود

٧٠٥٤

صور سياحية

أيام فى سويسرا

بقلم سائح متجول

غادرنا باريس فى منتصف الليل قاصدين إلى سويسرا ؛ وإذا كنا قد هبطنا باريس فرحين متشوقين بزيارتها والتمتع برؤية معالمها ومعاهدها التاريخية ، فقد غادرناها أيضاً دون أسف ، بعد أن تركت فى نفوسنا صوراً أخرى غير تلك الصور الخلابة التى ألفناها فى كتب الأدب وفى المقالات والفصول الرنانة ؛ وسار بنا القطار ينهب الأرض ليلاً متجهاً نحو الالزاس ، فلما أسفر الصبح كنا نخترق أراضى الالزاس مارين بتلك المواقع الشهيرة فى تاريخ الحرب والسياسة مثل بلفور وميلهوز وغيرهما ؛ وقد لاحظنا منذ بدأنا نجوز الالزاس أننا نكاد نخترق أرضاً غير فرنسية ، فالناس يتحدثون بالألمانية المحرفة (أو الالزاسية) فى كل مكان حتى موظفى القطار يخاطبون الركاب بالألمانية ، وكل ما هنالك من طبيعة ومناظر وأشخاص يكاد ينطق بأن الالزاس ليست فرنسية فى طابعها وفى روحها ، وإن كانت السياسة ومصاير الحرب قضت بأن ترد الالزاس واللورين إلى فرنسا عقب انتصارها فى الحرب الكبرى

ووصلنا إلى الحدود السويسرية فى الصباح الباكر ، ودخلنا محطة بازل (أو بال) حيث أجريت الاجراءات الجمركية فى أدب وظرف ؛ وشعرنا فى اللحظات القليلة التى مرت حتى وصولنا إلى الفندق أننا نجوز إلى محيط آخر أرق خلالاً ومدنية من محيط فرنسا والشعوب اللاتينية كلها ؛ وإنك لتأنس نفس الشعور عند ما تخترق الحدود الايطالية مثلاً إلى النمسا ، فتشعر فى الحال أنك غادرت فى إيطاليا محيطاً أقل مدنية وخلالاً

وسويسرا موطن السياحة بحق ، والسياحة أهم مواردها القومية ، ولهذا تعنى ولايات الاتحاد السويسرى ومدنه المختلفة بتنظيم شؤون السياحة أحسن تنظيم وتذيع عن سويسرا ومصايفها ومشاتيها ومناظرها ونزهها نشرات بديعة جذابة ، وتعنى بتنظيم